

مِنْ حَدِيثِ

الماء في الأدب العربي

الدكتور محمد سعيد

وحديث الماء في الأدب العربي ، وفي غيره من الآداب ، طويل طويل ولكنني سأتناوله من زاوية واحدة ، زاوية الإحساس بالعطش . وحديث العطش وإن كان كثيراً ما يدور مع حديث الجوع ، ولكننا نراهم حين يقارنون بين الحاجة إلى الماء ، والحاجة إلى الطعام يجعلون الماء عتدهم مقدماً على الطعام وقد قالوا : إن الحاجة إليه أشدّ والصبر عنه أشقّ وأتعب . وكثيراً ما يموت الإنسان عطشاً ، وقتما يموت جوعاً .

وقصة كعب بن مامة الأيادي^(١) التي آثر فيها رفيقه بالماء على نفسه فمات عطشاً ، مما يدور في كتبهم ويضرب بها المثل عندهم ، وإليها يشير أبو تمام^(٢) في قوله :

يجود بالنفس إذ ضنّ البخيل بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وهم حين يفاضلون بين حالة الجائع وحالة العطشان ، يجعلون حاجة الماء وأهميته تسبق حاجة الطعام ، ويقولون : « إن العطشان إذا حصل له الريّ بالماء تراجعت إليه قواه ونشاطه وحركته ، وصبر عن الطعام وانتفع بالتدبير اليسير منه . أما العطشان فإنه لا ينتفع بالتدبير

(١) بلوغ الأرب للألوسي ٨١/١

(٢) الديوان : ٢٩٣/١

الكثير من الطعام ، ولا يحدث له القوة والاعتناء .

إن الماء له أهميته عند أهل الصحراء الذين يخافون أكثر ما يخافون من صحرائهم الحرة والعطش . وهم لا يتخيلون عذاباً أكثر من عذابهما .

ومن الواضح ان بيئة الناس الجغرافية أو الطبيعية ، هي التي تصبغهم ، وتصبغ خيالهم بصبغتها . إن الأسكيمو الذين يعيشون في الثلوج ، ولا يرون الشمس إلا قليلاً ، ويرون الريح الباردة حشيت بفتات الثلوج حشواً ، تهب عليهم فتفعل فعل الأبر في وجوههم . هؤلاء الأسكيمو إذا تخيلوا العذاب ، أو تخيلوا جحيمهم تخيلوه زمهريراً بارداً ، قد لفه الظلام لفاً ، وهاجت فيه العواصف الثلجية من كل صوب ^(١) .

وزعم زرادشت ان العقاب في الآخرة ، إنما هو بالبرد والزمهرير والدَّمَق ، وفي اللسان : « الدَّمَق بالتحريك : الثلج مع الريح يغشي الانسان من كل أوب حتى يكاد يقتل من يصيبه ، وقد نظر الجاحظ الى هذا ، ونقل تعليل أصحاب الكلام له . قال ^(٢) :

وزعم اصحاب الكلام أن زرادشت — وهو صاحب المجوس — جاء من بلخ ^(٣) وادعى ان الوحي نزل عليه . وانه حين دعا سكان تلك الناحية الباردة الذين لا يعرفون الا الأذى بالبرد ، ولا يضربون المثل إلا به ، حتى يقول الرجل لعبده : لئن عدت الى هذه لأزعن ثيابك ، ولأقيمك في الريح ، ولأوقفنك في الثلج ... فلما رأى موقع البرد منهم هذا الموقع جعل الوعيد بتضاعفه ، وظن ان ذلك أزجر لهم عما يكره » .

أما العرب أهل الصحراء فقد صور لهم — سبحانه — العذاب بقوله ^(٤) « فالذين كفروا قُطِّعَتْ لهم ثياب من نار ، يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميم . يُصهر به ما في

(١) Semple: influence of Geographic Environment P : 40

(٢) الحيوان ج ٦٧/٥ وما بعدها . (٣) مدينة مشهورة بخراسان .

(٤) سورة الحج ، آية : ٢٢ .

بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غمّ اعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » وبقوله - سبحانه - ^(١) : « ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب . ان الله كان عزيزاً حكيماً » .
 وحين يتحدث - سبحانه - عن عذاب أهل النار يجاوز صور العذاب والألم كلّها الى العطش ؛ ذلك لأن العرب لا يعرفون في صحرائهم عذاباً كعذابه ولا لوعة كلوعته . يقول سبحانه ^(٢) :
 « ونادى أصحاب النار اصحاب الجنة ان افيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا : ان الله حرمها على الكافرين » فالآية الكريمة تصوّر نعيم أهل الجنة يراه أهل النار فلا يتحسّرون على شيء منه تحسّروا على الماء . ويقول سبحانه ^(٣) : (واستفتحوا وخاب كل جبّار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ، يتجرّعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان ، وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ .. » .

والصور التي تتميز بها الجنة عن النار كثيرة في القرآن الكريم ، على ان صورة الماء هي الصورة الواضحة البارزة التي تدور وتظهر عند المقارنة بينهما ، قال تعالى ^(٤) : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة في جنّات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم » وقال سبحانه ^(٥) في الحديث عن أهل الجنة : « ونزعنا ما في صدورهم من غلّ تجري من تحتهم الأنهار . وقالوا : الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة التي اورثتموها بما كنتم تعملون » وقال سبحانه ^(٦) : « ولمن خاف مقام ربه جنّتان فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيها عینان تجريان . فبأي آلاء ربكما تكذبان » .

(٢) سورة الاعراف ، الآية ٥٠ .

(٤) سورة التوبة ، الآية ٧٢ .

٦ سورة الرحمن ، الآية ٤٦ .

(١) سورة النساء ، الآية ٥٦ .

(٣) سورة ابراهيم ، الآية ١٥ .

(٥) سورة الاعراف ، الآية ٤٣ .

وقد ترى المقارنة واضحة كل الوضوح في صورة الجنة تقابلها صورة النار ، وترى لفظة الأنهار — وهي أهم ما يتبادر إلى ذهن العطشان حين يتصور الماء الكثير — ترى لفظة الأنهار تكرر في الآية الكريمة فتتعلق بها نفس السامع ولا سيما العطشان ، ويتبعها بخياله متحيراً لما لهذه الأنهار الكثيرة المتعددة من صور ، يقول سبحانه ^(١) (أفن كان على بيّنة من ربه كمن زين له سوء عمله ، واتبعوا أهواءهم مَثَلُ الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى . ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار ، وسقوا ماءً حمياً فقطع أمعاءهم .. » .

وكان العرب المسلمون يرون الماء من نعم الله الكثيرة التي لا يوفّيها الشكر حقها . وفي العقد الفريد ^(٢) قال الحسن لفرقد السنجي : « بلغني أنك لا تأكل الفالودج ! قال : يا أبا سعيد أخاف ألا أوّدي شكره . قال : يا لكّمع ، وهل تؤدي شكر الماء البارد في الصيف ؟ » والماء نعمة ، ومقامه فوق كل مقام ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في بئر رومة « الماء لا ينجسه شيء » ^(٣) . وهم يرون الصبر عنه غاية لا تدرك ، وحسبك منهم أن يمدحوا الرجل في مروءته فيقولوا فيه « لو علم فلان أن شرب الماء البارد يضع من مروءته لما ذاقه » وعندهم أن هذا غاية ما يقال . وإذا أرادوا المقارنة بين ما تتمناه النفس ، وما تنفر منه ، وأرادوا أن يفرّقوا بين هذا وهذا ، قالوا كما قال لقيط بن زرارة في يوم جيلة ^(٤) شتّان هذا والعناق والنوم والمشرّب البارد والظلّ الدوم وإذا أرادوا أن يتحدثوا عن المني ، أحسن المني ، وعن طيب وقعها من نفوسهم ، قالوا كما قال بعض الأعراب ^(٥) .

(٢) ٢٩٣/١ .

(١) سورة محمد الآية ١٤ .

(٤) مجاز القرآن لابي عبيدة (ج / ٤٠٤ .

(٣) الحيوان للجاحظ ١٤٧/٥ .

(٥) الحيوان ١٩٢/٥ .

منى إن تكن حقاً تكن احسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً
أمانى من سلمى حسان كأنما سقتني بها سلمى على ظمأ بردا
ويتحدث الرجل عن مقام ابنه في نفسه ، فلا يرى أكثر من أن يقول (١) :

إذا كان أبناء الرجال حزازة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب

ويذكرون ديارهم ، والعربي معروف بحبه لوطنه ، وبحنينه اليه ، وقد ملأوا كتبهم
بأحاديثهم عن الغربة والإغتراب ووقعها في نفوسهم . أقول يذكرون ديارهم ، فاذا تذكروها
كان أول ما يحنون اليه ، وأول ما يتشوقون اليه ويتمنونه هو ماؤها وشرابها .

يتذكر أبو القمقام الأسدي بلده ، وأول ما يتذكر منه جبلهم . واذا ما تذكر الجبل
كانت صورة الماء أول الصور التي تسرع الى خاطره . وتراه يحسّ لماءهم طعماً خاصاً ، لا يجده
في غيره من المياه . حتى لتراه يرى أن كلّ المشارب ذميم بالقياس إليه . يرى الماء ويذوقه
فتسرع إلى نفسه وإلى خاطره صورة الماء في بلده ، فيذمّ المياه كلها بالقياس اليه ، وتتلطف
نفسه إلى جبله فلا يجد أكثر من أن يدعو له « بالسقيا » . ويخص بهذه « السقيا » ظله
بالعشي وبالضحى . ثم يخص بها ماءه أيضاً ؛ ذلك الماء الذي يكون بارداً حين يكون غيره
من المياه حميماً . وعندنا ان هذا الإحساس إحساس الروح ، لا إحساس الجسم وانه يتعلق
بإحساس النفس والخواطر أكثر منه متعلقاً بإحساس الفم واللسان .

ثم أنظر بعد هذا إلى حرصه على هذا الماء وإلى تعلق نفسه به ، وانظر الى صورة الماء
وهو في حفر الصخر تسرع الى نفسه ، فيتمنى لو استطاع ان يحرم مذاق ما في هذه
القلات على اللثام . يقول أبو القمقام الأسدي :

اقرأ على الوائل السلام وقل له : كل المشارب مذهُجرتَ ذميم
جبلٌ يزيد على الجبال إذا بدا بين الربائع والجثوم مقيم

سقياً لظلك بالعشي وبالضحى ولبرد مائك والمياه حميم
لو كنت أملك منع مائك لم يذق ما في قلاتك - ما حيت - لئيم
ان هذه الصورة الأخيرة ؛ صورة ابي القمقام الأسدي يتعلق بماء الوشل ^(١) هذا التعلق ،
تورد الى نفسي صورة أبي نواس يتعلق بالحمر حتى يقول :
أجلّ عن اللثام الراح حتى كأن الراح تعصر من عظامي ^(٢)
وفي قصيدة المعري ^(٣) :

طربن لضوء البارق المتعالي ببغداد وهناً ما هنّ ومالي
في هذه القصيدة التي قالها وهو ببغداد بذكر حنينه الى الممرّة ؛ وطنه . وقد ابتدأها
بالحديث عن طرب الإبل ترى البارق يلمع ببغداد بعد وهن من الليل فيهيّجها الى وطنها ؛
لأنه يلمع من ناحيته . في هذه القصيدة يأخذ في وصف شدة شوق الإبل إلى وطنها فيقول :
إذا طال عنها سرّها لو رءوسها تمّدّ اليه في رءوس عوالي
ويقول الخوارزمي في التعليق على بيته هذا : « أبصار هذه الإبل قد سمت الى ذلك
البارق ، وكلما بعد عنها وارتفع تمّنت أن تقطع رءوسها وترفع اليه على فروع الرماح .
ومحصول معنى البيت شدة اشتياق الإبل الى الوطن » ^(٤) .

ثم أنظر ماذا تشتاق الإبل من هذا الوطن ، وماذا تتمنى منه :
تمنت قوياً وقوياً والصّراة حياها تراب لها من أينق وجمال
تمنت قوياً وقوياً ! وقويق هذا نهر على باب حلب . وأبو العلاء يتعجب منها كيف تتمنى
قويقاً ، وهي عند الصّراة - والصراة مجتمع دجلة والفرات - ببغداد . والصراة أطيب

(١) (أنظر معجم ياقوت في كلمة « الوشل » وانظر كتاب : « الشوايح » للدكتور محمد صبري :
ص : ٣٤) .

(٢) تطور الخربيات في الشعر العربي لجليل سعيد ص ٢٠٩ .

(٣) انظر : سقط الزند طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٧ ، ٢ / ١١٦٢ .

(٤) (انظر ص ١١٦٥ من المصدر نفسه) .

ماءٌ وأفضل من قُوَيْق . وأبو العلاء لا يجد أ كثر من أن يدعو عليها لجهلها في تفضيلها ذاك على هذا . وبعد حديثه عن الإبل اللواتي طربن .

وَأُنْشَدَنَ مِنْ شِعْرِ الْمُطَايَا قَصِيدَةً وَأَوْكَعْنَهَا فِي الشُّوقِ كُلِّ مَقَالٍ
نرى البرق يهيج به الى وطنه ، على نحو ما هاج الإبل الى وطنها . فيقول ، وكأنه يصيحُ ويفغرُ :

فيا برق ليس الكرخ داري وإنما رماي اليه الدهر منذ ليالي
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تُغيثُ بها ظمآن ليس بسال
هذا كله و « ماء المعرة » لا يقرن « بماء دجلة » . ماء المعرة ماء آبار وماء دجلة ماء
النهر العذب السلسبيل ولكنّه ذوق الروح لا ذوق الفم واللسان .

ويقول أبو الطمجان الأسدي (١) :

كأن لم يكن في القصر قصر مقاتل وزورة ظلّ ناعم وصديق
ولم أرد البطحاء امزج ماءها بخمر من البرقتين عتيق
فيتشوق أول ما يتشوق الى ماء البطحاء يمزجه بالخمّر . وقال مطير ، عبد بني قريظ
يتشوق الى أرضه والى « صداء » ما هم المعروف (٢) :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً و « صداء » مني و « البياض » بعيد
بواد من اللعاء أعلاه عوسج وأسفله رمت عليه جهيد
وقال آخر (٣) :

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً بصحراء ما بين الجثوم إلى شعر ؟
وهل أردنّ العين والشملُ جامعٌ مقيم النوى قد حان ذاك على قدرتي ؟
واذا أرادوا التعبير عما يقع في نفوسهم موقعاً لا يدرون كيف يردونها عنه لم يجدوا
أكثر من أن يقرنوه بالماء ، ثم يروحون في استقصاء أوصاف الماء الذي يقرنونه به يفضلونه

(٢) بلوغ الأرب للأنباري ج ٣ / ٢٩٩ .

(١) الحيوان ١٠٨ / ٥

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

على غيره من المياه قالوا كما قالت أم فروة (١) .

وما ماء مزن أي ماء تقوله
بمعرج أو بطن وادٍ تحدث
نفى 'نسم الريح القذا عن متونه
بأقصر ممن يقصر الطرف دونه
تحدث من غرّ طوال الدوائب
عليه رياح المزن من كل جانب
فما ان به عيب تراه لشارب
تقى الله واستحياء بعض العواقب

وامتلاً شعرهم بالنسيب ، وبالحديث عن النساء وقد شعر الشاعر جرير برقة حديثه أو غزله . وتراه يريد أن يتحدث عن شدة شوقه إلى الحبيبة ، فلا يرى أكثر من أن يشبه شوقه إليها بشوقه - وهو ظمآن - إلى الماء ، يقول (٢) :

منعت شفاء النفس ممن تركته
تركت بنا لوحاً ولو شئت جادنا
به كالجوى مما تجنّ الجوانح
بُعَيْدَ الكرى ثلج بكرمان ناصح
واللوح : العطش ، أو شدته . ويتحدث عن ريق الحبيبة ، فلا يرى ما يشبهه به غير الماء ، الذي يعن في وصفه ، فيقول :

وما ثغّب باتت تصفقه الصّبا
بأطيب من فيها ، ولا طعم قرّفٍ
بصراء نهى اتأقته الروائح
برّمان لم ينظر بها الشرق صابح
أو يقول (٣) :

تطيب الأرض إن نزلت بأرضٍ
كأن المسك خالط طعم فيها
وتسقى حين تنزلها الربابا
بماء المزن يطرد الحبابا
ويتحدثون عن الأمر يشتهونه ويتشتاقون إليه ويدفعون عنه ، بشوقهم إلى الماء يرونه ، ويدفعون عنه . يقول جرير (٤) :

(٢) الديوان طبعة الصاوي ص ١٠٠ .

(١) (الحيوان ٥/ ١٤٢) .

(٤) الديوان ص ٥٢ .

(٣) الديوان ص ١٦ .

أَجَلًّا عَنْ بَرْدِ الشَّرَابِ وَقَدْ أَرَى
وَيَقُولُ (٥) :

نَزَى شَرِبًا لَهُ شُرْعٌ عَذَابٌ
قَلِيلٌ مَا يَنَالُكَ مِنْ سُليْمِي
وَيَقُولُ (٦) أَيْضًا :

حَلَّاتْنَا عَنْ قَرَّاحِ الْمِزْنِ فِي رَصْفٍ
كَمْ دُونَ بَابِكَ مِنْ قَوْمٍ نَحَاذِرُهُمْ
وَلَمَّا كَانَتِ الْمَاءُ مِنْ نَفْسِهِمْ كَانَتْ غَايَةً دَعَائِهِمْ أَنْ يَقُولُوا كَمَا قَالَ الْمَهْلَهْلُ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ :
سَقَيْتِ الْغَيْثَ إِنَّكَ كُنْتِ غَيْثًا
وَكَانَتِ السَّقِيَا غَايَةً مَا يَدْعُونَ بِهَا لِاحْتِبَائِهِمْ ، يَقُولُ جَرِيرٌ (١) دَاعِيًا :

فَلَادِيَّةٌ - سَقَيْتِ - وَدَيْتِ أَهْلِي
الْمَاءُ صَاحِيٌّ نَزَرَ سَعَادًا
وَيَقُولُ دَاعِيًا لِأَهْلِهَا (٢) :

خُبِّرْتُ أَهْلَكَ اصْعَدُوا مِنْ ذِي الصَّفَا
وَعَرَفْتُ بَيْنَهُمْ فَهَاجَ صَبَابَةٌ
سَقِيًا لَذَلِكَ مِنْ فَرِيقِ اصْعَدَا
وَيَدْعُونَ لِلْمَنَازِلِ بِالسَّقِيَا ، وَمِمَّا يَدُورُ فِي كُتُبِ الْبَلَاغَةِ قَوْلُ طَرْفَةٍ :

وَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مَفْسَدِهَا
وَيَقُولُ جَرِيرٌ (٣) :

وَسَقَى الْغَمَامُ مَنِيْزَلًا بَعْنِيْزَةً
أَمَّا تَصَافُ جَدِيَّ وَأَمَّا تَرْبِعُ

(٥) الديوان ص ١٤٥ .

(٦) الديوان ص ١٨١ .

(١) الديوان ص ١٢٤ .

(٢) الديوان ص ٣٤٢ .

ويدعو بالسقيا الى قبر حبيبته ، فيقول ^(١) :

قالوا : تعزَّ فقلت لست بكائنٍ

فسقاك ! حيث حللت غير فقيدةٍ

ويدعو للقبر ايضاً ، إذ يقول :

فسقى صدى جدثٍ ببرقة ضاحك

هزم أجش اذا استحار ببلدة

ومن الجميل الحسن قول سعيد الطبري :

اروضتنا — سقاك الله — هل لي

غنينا في ذراك على غناء

وكم في فرع اثلك من صفير

واحشاء تؤلفها الحشايا

و « برد الشراب » عندهم يتمثل به في كل محبوب ، وعند كل مشتهي ، يقول

عمر بن أبي ربيعة :

قال لي صاحبي ليعلم ما بي

قلت : وجدي بها كوجدك بالما

ويروى أن علياً - رضي الله عنه - سأله سائل قال : « كيف كان حبكم لرسول الله

صلى الله عليه وسلم ؟ فقال - رضي الله عنه - : كان - والله - أحبَّ إلينا من أموالنا

وآبائنا وامهاتنا ، ومن ابنائنا ومن برد الشراب على الظمأ » .

وكانت العرب تحبّ الحديث الحسن ، تستمتع به وتفضله على غيره من المتع . يقولون

إن عبد الملك بن مروان كتب الى الحجاج بن يوسف أنه ملّ مُتَمَع الدنيا ولذاتها ، إلا

(١) ٣: ٣ الديوان .

لذة الحديث ومتعته ، وطلب اليه ان يبعث اليه من يحسن الحديث فبعث اليه الشعبي الفقيه
المشهور بحسن الحديث . وكان الشعراء يمتدحون عشيقاتهم فيجاوزون كل متعة الى متعة
الحديث هذه . والله كثير عزّة ! ما اجل قوله في هذا ، اذ يقول :

وكنت اذا ما جئت سعدى بأرضها أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها
من الخفرات البيض ودّ جليسا نذا ما انقضت احدثة لو تعيدها

هذا الحديث الذي تتعلق به نفوس العرب هذا التعلق ، اذا ارادوا ان يشبهوا حسنه
بشيء حسن الموقع في نفوسهم لا نجدهم يجدون احسن من برد الشراب وقعاً في النفوس ،
وهم ينشدون لبعض الأعراب :

حديثك اشهى - فاعلمي - لو اناله الى النفس من برد الشراب على الظما
لقد اكثر الواشون فيك ملامتي فكانوا بما ابدوا من اللوم الوما
او يقولون كما قال القطامي فيه :

فهنّ ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي

ولوّن الماء تعابيرهم ، فقالوا لما لا يستحسنونه : « لا ماء فيه » قال ابن قتيبة ^(١) :
وهو يتحدث عن اللفظ والمعنى في قول لبيد الشاعر :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

قال : « هذا وان كان جيّد المعنى والسبك ، فانه « قليل الماء والرونق » . وقالوا :
« فلان ليس في وجهه ماء » واستعاروا الماء في كلامهم لما يحسن موقعه ومنظره ، ويعظم
قدره ومحله من نفوسهم قال ابو نواس ^(٢) :

لما ندبتك للجزيل أجبتني : لبّيك واستعذبت « ماء كلامي »

وقالوا عن المنذر بن « ماء السماء » وهو آخر ملوك الحيرة ، قالوا : نسب الى امه

(٢) الديوان ص ١١٠ .

(١) الشعر والشعراء ص ٩ .

وكانت تسمى ماء السماء تشبهاً لها بماء السماء في الحسن والصفاء والطهارة . وقالوا :
صبغ له ماء ، ولون له ^(١) ماء .

وقالوا : « ماء الوجه » ، وكنوا به عن الحياء وهو من أهم ما يمتاز به المرء عندهم .
قال الشاعر ^(٢) :

ماء الحياء يجول في وجناته

وقال أبو تمام ^(٣) :

رددت رونق وجهي في صحيفته ردّ الصقال لماء الصارم الخدم
وما أبالي وخير القول صدقه حقنت لي « ماء وجهي » أم حقنت دمي

وقالوا : « ماء الشباب » ، واداروه في شعرهم . قال عمر بن أبي ربيعة :

وهي مكنونة تحيّر منها في اديم الخدين « ماء الشباب »
وقال أبو العتاهية :

ظلي عليه من الملاحه حلّة « ماء الشباب » يجول في وجناته
وقال أحمد بن إبراهيم بن اسماعيل :

اهيف ماء الشباب يرعد في خديه لولا اديمه قطّرا

وما أجل اشارة ابن الرومي الى هذا ، في قوله يرثى بستان ، المغنية :

يا حرّ صدري على ثلاثة اموا ء مُهريق في التراب والمدر
ماء شباب ونعمة مُزجا بماء ذاك الحياء والخفر
تبتّل العود بعد فقدكم وازدجر اللهو أيّ مزدجر
وغاض ماء النعيم يتبعكم وانهمر الدمع أيّ منهمر

(٢) الحيوان ج ٥ / ١٤٢ .

(١) الحيوان ج ٥ / ١٤٢ .

(٣) الديوان ص ٢١٩ وفيها : بها الصارم .

فتراه يستعير الماء في أبياته هذه الى كل ما يُحبّ ويعظم فيقول : « ماء الشباب »
و « ماء النعمة » و « ماء الحياء » و « ماء النعيم » . وقالوا : « ماء الحسن » .
وما اجل اشارة ابن المعتز اليه في قوله :

لي	مولى	لا اسميه	كل شيء حسن فيه
تصف	الأغصان	قامته	بتثن
ويكاد	البدر	يشبهه	وتكاد الشمس تحكيه
كيف	لا يخضر	عارضه	ومياه الحسن تسقيه

وقالوا : « ماء الصبا » . قالوا النشد ابن السكيت ^(١) :

قد قلت اذ ماء صباك يُرعى
واذ اهاضيب الشباب تبغش

وتحدث عشاقهم عن الوجد والبكاء ، وكنّوا عن الدموع ، فقالوا : « ماء الشوق »
و « ماء الجفن » و « ماء الصبابة » و « ماء الهوى » . قال العتّابي :

اكاتم	لوعات	الهوى	ويبينها	تخلل	ماء الشوق	بين جفوني
ويقول	ابو الطيب	المتنبي ،	وهو يتحسّر	على	شبابه :	
والمرء	يأمل	والحياة	شبهة	والشيب	أوقر	والشبية أنزق
ولقد	بكيت	على	الشباب	ولمتى	مسودة ،	« ولما وجهي » رونق
حذراً	عليه	قبل	يوم	فراقه	حتى لسكدت	« بماء جفني » اشرق
وقال	ذو الرمة :					

أأن	ترسجت	من	خرقاء	منزلة
وقال	ذو الرمة	أيضاً :		

أداراً	بجزوى	هجت	للعين	عبرة
« فماء الهوى »	يرفض	او	يتفرق	

(١) اخبار ابي تمام للصولي ص ٢٦ .

وقالوا : « ماء الندى » و « ماء النوال » ، يقول البحري :

وما انا الا غرس نعمتك الذي أفضت له « ماء النوال » فأورقا

وقفت بآمالي عليك جميعها وارك في امساكهن موفقا

واخذ النقاد على ابي تمام قوله :

لا تسقني « ماء الملام » فاني صب قد استعذبت ماء بكائي

قال الصولي - وهو ينتصر له - : قالوا : ما معنى ماء الملام !؟ وهم يقولون : « كلام

كثير الماء ، وما اكثر ماء شعر الاخطل ! ، قاله يونس بن حبيب ... وقال عبد الصمد :

اي ماء « لماء وجهك » يبقى بعد ذل الهوى وذل السوال ؟!

فصير لماء الوجه ^(١) ماء ...

هذه صورة الماء ومكاته وموقعه من نفوس العرب ، إن العطش في صحرائهم لا يحتمل

وان عذابه افزع صور العذاب واقساها ، وانهم يستهينون بكل عذاب حين يقرن به . جاء

في العقد الفريد ^(٢) ذكروا أن اعرابياً أتى عين ماء صاف في شهر رمضان فشرب حتى

روى ثم أوماً بيده الى السماء فقال :

ان كنت قدّرت الصيا م فأعفنا في شهر آب

أولا ، فإننا مُفطرو ن وصابرون على العذاب

صحب سعب

(١) اخبار ابي تمام للصولي ص ٣٤ . (٢) ١٩٨/٣ .